

عمر بن عبد العزيز

اجتمع في تكوين شخصية «عمر بن عبد العزيز» عوامل كثيرة ، تضام بعضها إلى بعض ، فأخرجت للناس لوناً جديداً من ألوان الرجال الذين تجتمع فيهم نباهة الملك في سياستهم وحكمهم ، ونباهة الزهد في ورعهم وتصوفهم ؛ ولقد ود الحسباء قديماً لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكاً ، حتى تقرر السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد ، وينهض المجتمع الإنساني فيستحيل العالم الدنيوى فيه جنة مرضية ، ونعيماً مقبلاً .

ولقد تحقق هذا الحلم الجميل على عهد الخليفة العربى المسلم «عمر بن عبد العزيز» ، فهو رجل أوتى المال والمعرفة ، وألقت إليه المقادير بزمام أعظم دولة في الأرض على عهده ، واستطاع في خضم كل التيارات المحيطة به أن يكسر شهوته ، ويميتها ، وأن يروض نفسه حتى يردها إلى الرضا بالقليل ، ثم تجرد ونهض لإصلاح رعيته عن طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاق الناس في مدة حكمه لذة الأمن واليسر والرضا . وإلى هذا وفوق ذلك ، فقد ترامت همته الكبيرة إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع في أن يجمع شعوب الأرض في نظام واحد ، يقوم على أساس من مبادئ الأخوة والعدل والمساواة ؛ ووفق عمر بن عبد العزيز في هذا

المطمع البهيد توفيقاً كبيراً ، لم يحده من مقداره إلا أن عجلت
إليه المنية ، وهو لا يزال في ميعة العمر وعنفوان الحياة .

اجتمع في تكوين شخصية « عمر بن عبد العزيز » عاملان :
عامل الوراثة . وعامل البيئة . فأبوه عبد العزيز ولي إمارة مصر
من قبل أبيه مروان بن الحكم عشرين سنة ، كان فيها الحاكم
الصالح والأمير العادل ؛ وقد اضطلع بأعباء الحكم ، فبان فيه
بصره بتأليف القلوب ، ومقدرته على سياسة الأمور ، فضلاً عن
ثقافة عالية حبيبت إليه العلماء ، وقربته من مجالسهم . أما جده
للأبيه « مروان بن الحكم » فهو ذلك السياسي الجريء ، العارف
بنفسية الأفراد والجماعات ، والقادر على أن يسير دقة الأمور في
كل الظروف وبين كل الأجواء .

وأما نسبه من جهة أمه ، « قأمه » ليلي أم عاصم ، بنت عاصم
ابن أمير المؤمنين العادل « عمر بن الخطاب » . وجدته لأمه ، تلك
الفتاة الشريفة الصالحة التي لم تطع أمها في معصية خالقها ،
وامتنعت أن تشوب اللبن بالماء ؛ كان عمر بن الخطاب ، قد أمر
مناديه ، قنادي في الناس : « ألا يشاب اللبن بالماء » ، فقالت
أم لا بنتها « يا بنتاه ، قومي إلى اللبن ، فامدقيه بالماء ، فإنك

بموضع لا يراك فيه عمر ، ولا منادى عمر ، فأجابت الصبية أمها :
« يا أمها ، والله ما كنت لأطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلا » .

وكان عمر بن الخطاب يسمع هذا القول ، وهو متكئ
على جدار في جوف الليل ، وقد أعياه تعب العسس بالمدينة ، فقال
عمر لصاحبه : « يا أسلم ، علم الباب ، وأعرف الموضع ، ومضى
عمر في عسسه ، ولما أصبح ، قال « يا أسلم ، امض إلى ذلك
الموضع ، فانظر من القائمة ، ومن المقول لها ، وهل لهم من
بعل ؟ ، فأتى « أسلم » الموضع ، ونظر ، فإذا الجارية أيم ،
لا بعل لها ، وإذاتيك المرأة أمها ، وليس لها من رجل ، فأتى
« أسلم » عمر بن الخطاب ، وأخبره الأمر ، فدعا عمر ولده ، وجههم
إليه ، وقال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ، ولو كان
بأييكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية . فقال
عبد الله ابنه « لي زوجة » ، وقال عبد الرحمن « لي زوجة » . وقال
عاصم « يا أبتاه ، لا زوجة لي ، فزوجني » . فبعث عمر إلى
الجارية ، وزوجها من ابنه عاصم ، فولدت له بنتا ، وولدت
البلت « عمر بن عبد العزيز » .

ولما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج ، قال لقيمته :
« اجمع لي أربع مائة دينار من أطيب مالي ، فإنني أريد أن أتزوج
إلى أهل بيت لهم صلاح ، وتزوج أم عمر .

وكان عمر بن الخطاب يردد كثيراً قوله « ليت شعري ، من
هو الشين من ولدي الذي يملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً » .
وامتنع ابن الخطاب مرة من نومه ، فمسح النوم عن وجهه ،
وعرك عينيه ، وهو يقول : « من هذا الذي من ولد عمر ، يسمى
عمر ، ويسير بسيرة عمر » يرددتها مرات ، وكان عبد الله بن عمر
يقول : « ليت شعري ، من هذا الذي من ولد عمر ، في وجهه
هامة ، يملأ الأرض عدلاً » .



هذا هو عمر بن العزيز في نسبه ونيل وراثته ؛ وليس أثر
البيئة التي نشأ فيها ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة في
تكوينه ، فقد ولد عمر بالمدينة سنة اثنتين وستين من الهجرة ،
ودرج بها غلاماً صغيراً ، يأتي عبد الله بن عمر ، ثم يرجع إلى
أمه ، فيقول لها : « يا أماه ، أحب أن أكون مثل خالي ، فترفق
به أمه مشفقة عليه وتقول : « . . أنت تكون مثل خالك . . »
فيزداد الطفل بهذا القول رغبة ، ويقوى به الدفع المشفق
تصمياً وأملاً .

ولما ولي أبوه أمر مصر ، وقد أعجله الخليفة بالسفر إليها ، كتب
عبد العزيز بن مروان إلى زوجته - وكانت بالمدينة - أن تقدم عليه ،

وأن تأتي بابنها ، فأنت الزوجة عمها « عبد الله بن عمر » ، وأعلمه
بكتاب زوجها إليها ، فقال لها « يا ابنة أخي : هو زوجك ، فالحق
به » . ولما أرادت الخروج ، قال لها عمها « . . خلقي عندنا هذا
الغلام - يعني عمر - فإنه أشبهكم بنا » . خلفت الأم ابنها عند
خاله ، ولم تخالفه .

وعندما قدمت مصر على زوجها عبد العزيز ، أبصر الأب
ولده ، فإذا هو لا يرى عمر ، فقال لها « وأين عمر ؟ » فأخبرته
خبر عبد الله ، فكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان ، يخبره
بذلك ، فكتب عبد الملك أن يجري على عمر بن عبد العزيز ألف
دينار في كل شهر .

ثم إن عمر قدم على مصر ، ولبت بها زمنا ، ينعم فيها بصحبة
أبيه ، ومشاهدة آثار الحضارة المصرية ، حتى وقع بها الطاعون
سنة سبعين من الهجرة ، فخرج منها أبوه ونزل بخلوان ، وقد كان
أعجبه موقعها وهواؤها . فاشتراها من القبط بمشرة آلاف دينار .
واتخذها سكنا له ، وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن
عمارة ، وغرس نخلاها وكرمها وشجرها .

وفي ذات يوم ركب عمر بن عبد العزيز حمارا ، فسقط
عنه ، وشج وجهه ، وبلغ هذا أنخاء « الأصمغ » ، وكان غلاما ،
فضحك لسقوط أخيه ، وبلغ سقوط عمر وضحك أخيه منه أباه .

عبد العزيز ، فاعتناظ على الإصبع ، وقال له « يسقط أخوك ، فيشجع
فتضحك سرورا بما أصابه ؟ » فقال الإصبع « ليس ذلك كذلك
أيها الأمير ، لم يضحكني شماتة ولا سرور بسقوطه ، ولكن كنت
أرى العلامات عن أشجع بن أمية مجتمعة فيه ، إلا الشجرة ، فلما سقط
وشجع سرتني ذلك ، لتكامل العلامات فيه . فأضحكني . . . وهو
والله أشجع بن أمية » . فسكت عبد العزيز ، وقال : ما ينبغي لمن كان
يرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة . .

ولما بلغ الصبي « عمر » سن التأديب ، بعث به أبوه إلى المدينة
ليتأدب بها ، وينشأ فيها نشأة إسلامية مدنية . والمدينة المنورة
إذ ذاك كانت مركزا مهما للثقافة الإسلامية ، فقد انفردت
زمن النبي محمد - صلوات الله عليه - بأن كانت مهجر رسول الله
وأصحابه ، وبها حدث الرسول أكثر حديثه ، وفيها شرع الرسول
معظم شريعته ، وظلت المدينة من بعده مقر الخلافة الإسلامية أيام
أبي بكر وعمر وعثمان وموطنا لكبار الصحابة والأئمة الأعلام ،
واشتهر بها كثير من العلماء الأجلاء ، أمثال زيد بن ثابت الذي
كان حجة في القضاء والفتوى والقراءة والمواظبة ، وعبد الله
ابن عمر إمام علم الحديث ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن
الزبير بن العوام ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

ولم تكن البيئة بالمدينة ممائلة في الروح الديني الصحيح ، فقد كان فيها أيضا الجانب الألفه من الحياة ، ممثلا في عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي ، وفي طائفة من المغنين والقيان يتقدمهم مهيب ، ومالك بن أبي السمع ، المغنيان المدنيان المشهوران ، وفي طائفة من الشباب يتقلبون في أعطاف النعمة والبطالة ، فجنحوا إلى الاستمتاع بلذائذ الحياة ومتعها ، وطفقوا ينفقون الأموال في الترف واللهو والتقصص والغناء ، حيث مواد النعيم لديهم موفورة .

وكانت المدينة في تلك الحقبة من الزمان تزخر بالحياة الأدبية ، من قرص الشعر ، ورواية أشعار العرب ، وأخبارهم ، وأيامهم ، ثم هي إلى هذا وذاك كانت من الناحية السياسية موطنًا للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية .

في هذه البيئة تخرج عمر بن عبد العزيز ، فروى الحديث عن جملته ورواته . وإذا العلماء عنده تلاميذه ، ولما صلى أنس بن مالك « خادم النبي صلى الله عليه وسلم خلف عمر بن عبد العزيز ، قال : « ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلاة أشبه بصلاة رسول الله من إمامكم هذا » وكان عمر بن عبد العزيز يتم الركوع والسجود ويخفف العقود والقيام .

ولقف عمر بن عبد العزيز صناعة الغناء ، وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب في بيئة غنائية ، فياضة بالألحان والإيقاع ،

منعمه بحذاق المغنين والمغنيات ، شارك فيها مشاركة حسنة كبار الأئمة
في المدينة ، ورجال الورع والتقوى .

وأشرب عمر بن عبد العزيز روح الحكومة الإسلامية القديمة
التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيرا ، وتاقت نفسه
إلى العربية والشعر فأصاب منهما ما أراد ، وإلى هذا كله ، فقد كان
ابن عبد العزيز فقي مليح الخلقة ناعما مترفا كمادة فتيان بن أمية ،
ويروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة ، فسأله مؤدبه « صالح بن كيسان »
وكان يلزمه الصلاة « ما حبسك ؟ » فقال له عمر : « كانت مرجاتي
تسكن شعري . . » فقال له صالح : « بلغ بك حبك تسكين شعرك
أن تؤثره على الصلاة . . » ، وكتب إلى عبد العزيز بذلك .
فبعث عبد العزيز إلى ابنه رسولا ، لم يكلمه حتى حلق شعره ، وكان
عمر بن عبد العزيز من أعظم الأمويين ترفها وتملكا ، غنى بالملك
ونشأ فيه ، تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه ،
ويمشي مشية تسمى « العمرية » كان الجوارى يتعلمنها من حسننها
وتبخره فيها .

* * *

وفي عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر
قد تم تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام ،
وقد سار ذكره إلى دمشق ، وبهر الناس فضله وعلمه ، وتحدث عنه

الغادى والرائح علما وفضلا ، وهيبة ووقاراً ، واختاره الخليفة
زوجاً لابنته فاطمة ، فدخلت الغيرة والحسد نفوس بعض أولاد
الأمويين ، وقال عبد الملك لعمر : « قد زوجك أمير المؤمنين
فاطمة بنت عبد الملك ، فأجابه عمر « وصلك الله يا أمير المؤمنين ،
قد أجزلت العطية وكفيت المسألة » . فسأله الخليفة : « يا عمر ،
كيف نفقتك على زوجك ؟ » فقال « الحسنة بين السيئتين يا أمير
المؤمنين » قال « فما هما ؟ » قال « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وبهز الخليفة ابنته على أحسن ما يجمزه الملوك ابنتهم ، وولى
زوج ابنته على بلد صغير يسمى « خناصر » من أعمال « حلب »
واغلة في البادية . فلبث عمر والياً عليها سنتين كانتا من أنعم سنى
حياته وسحابة زوجته ، وقد أعجبت هذه الأرض حتى أنه عندما
استخلف اتخذها منزلاً له ، على عادة ملوك بني أمية في إشارهم
سكنى البادية على الحاضرة .

❖ ❖ ❖

وفي ربيع الأول سنة ٨٧ هـ ولاء الوليد بن عبد الملك ،
وهو ابن خمسة وعشرين سنة ، بدلاً من هشام بن اسماعيل الخزومي
الذي أساء السيرة في أهلها ؛ فأبطل عمر بن عبد العزيز عن
الخروج إليها من دمشق أياماً : ولما قال الوليد لحاجبه : ما بال

عمر لا يخرج إلى عمله . . ؟ قال الخاضع : « زعم أن له إليك ثلاث حوائج . » فقال الوليد : « عجله عليّ » . ولما جاء إلى الوليد ، قال عمر : « إنك استعملت من كان قبلي ، وأنا أجدر ألا تأخذ في بعمل أهل المدوان والظلم والجور ، » فأجاب الوليد : « قد بلغت ما ترى من السن والحال » . وسأله عمر عن العطاء أن يخرج له للناس .

قدم عمر المدينة ، ونزل في دار جده . . مروان بن الحكم . . ودخل عليه الناس فسلموا ، ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر ابن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان ، وسليمان بن يسار ، والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه ، وجلسوا فحمد عمر الله وأنفى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« إنني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى ، أو بلغكم عن عامل أتى بظلامة ، فأخرج بالله على من بلغه ذلك إلا بلغني . . »

وكانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز . . ٨٧ - ٩٣ هـ . . حكومة شورية اصطفى لها المستشارين الذين يصدر في الأمور

عن رأيهم ، ولا ينفذ حكماً إلا باطلاعهم ، واختار عمر لقضاء
المدينة ، أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وعرف للعلماء حقهم
وفضلهم ، فأولاهم ما هم أهل من الإكبار والإجلال ، وروى
أنه أرسل إبان ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب -
وهو من أهل الفضل والورع - يسأله عن مسألة ، وكان سعيد
لا يأتي أميرا أو خليفة ، فأخطأ الرسول ، وقال لسعيد :
«الأمير يدعوك . . .» فقصده إليه سعيد ، ولما رآه عمر ، قال له
عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك
رسولنا عن حاجتنا ، فإننا لم نرسله ليدعوك ، وإنما أرسلناه
ليسألك ، ولكنه أخطأ . . .»

ثم إنه بعد قليل ضم الخليفة إلى إمارة عمر ، مكة والطائف ،
فأصبح ابن عبد العزيز بذلك أميرا على الحجاز كله ، وعكف
عمر على إصلاح شئون الحجاز . . . هدم المسجد النبوي وأعاد
بناؤه على نحو أوسع وأروع ، وقد ضم إليه حجرات أزواج
رسول الله صلى الله عليه وسلم - واشترى ما في مؤخره ونواحيه
حتى كان مائتي ذراع في مائتي ذراع ، وأصلح الطرق ، وسهل
الشتايا ، وحفر الآبار ، فتيهر بذلك الماء في ذلك القطر العظيم ،
وعمل بالمدينة فواره عند دار يزيد بن عبد الملك يستقي منها
الناس ، وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة

سنة ٩١ هـ وأمر للفوارة بقوامين يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك .

ولما حج عمر بن عبد العزيز في هذه السنة خرج بعلة من قریش ، أرسل لهم صلات ودواب للحمولة وأحرموا معه وساق معه بدنا ، ولما كان بالتنعيم (١) لقيهم نفر من قریش ، فأخبروه أن مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج العطش ، فقال عمر : فالمطلب ما هنا بين ، تعالوا ندع الله ، فدعوا ودعا معهم فألحوا في الدعاء ، فلا والله ما وصلوا إلى البيت الحرام ذلك اليوم إلا مع المطر حتى كان مع الليل ، وسكنت السماء ، وجاء سيل الوادي . ومن مظاهر بساطة عمر بن عبد العزيز في إمارته على الحجاز أنه جالس يرتل القرآن بصوته العذب في المسجد ، فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا أن ينتحى ناحية أخرى من المسجد ، وقد بلغه مرة أن قاضيه على المدينة قد استخفه الطرب عند مسمع جارية تفتى ، حتى أخرجه الطرب من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسباع الجارية ، فسمعها عمر ، وكاد هو أيضا أن يستخف ، فعذر القاضى وردّه إلى عمله .

وعندما قدم الفرزدق الشاعر المدينة ، وكانت السنة بمحلة (٢)

(١) مكان يحرم منه بالعمرة ، ويعرف بمسجد عائشة (٢) جدية

وخاف أهل المدينة لسانه ، مشى أهلها إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير ، إن الفرزدق قدم مدينتنا في هذه السنة الجدية إلى قد أهلسكت عامة أموالنا ، وليس عند أحد منا ما يعطيه شاعرا ، فلو أن الأمير بعث إليه ، فأرضاه ، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح أو هجاء . . فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق ، قدمت مدينتنا في هذه السنة الجدية ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعرا ، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم نخسها ولا تعرض لأحد بمدح أو هجاء ، فأخذها الفرزدق ، ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس في سقيفة داره ، عليه مطرف خز أحمر ، وبعجة خز أحمر ، فوقف الفرزدق عليه ومدحه بأبيات من شعره ، فخلع عليه عبد الله الجبة والعمامة والمطرف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رجل - كان قد حضر عبد الله والفرزدق عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد - ودخل إلى عمر ابن عبد العزيز ، فأخبره ، فبعث إليه عمر : ألم أقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، أخرج ، فقد أجلتك ثلاثا ، فإن وجدتك بعد ثلاث نسكت بك ، فخرج وهو يقول :

فأجلىني : وواعدني ثلاثا كما وعدت لمهلكها ثمود

نقال جرير فيه :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ومثلك ينفي من المسجد

وشبهت نفسك أشقى ثمود نقالوا : ضللت ولم تهتد

وقدم جرير المدينة ومدح عمر بن عبد العزيز بقصيدة منها قوله

إليك رحلت يا عمر بن ليلي على ثقة أزورك واعتباد

نعود صالح الأعمال ، إني رأيت المرء يلزم ما استعادا

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلي ومروان الذي رفع الصادا

تزود مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا

هنيئا للمدينة إذ أهلت بأهل الملك أبدأ ثم عادا

يعود الحلم منك على قریش وتفرج عنهم الكرب الشدادا

وتبني المجد يا عمرو بن ليلي وتكفي المحمل السنة الجمادا

ولما استطار شر عمرو بن أبي ربيعة وتمادي في غييه ، وشبه

ببنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه ،

وغدا الحجاز بفضل ابن عبد العزيز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت

به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقلاقل

فمن الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق

والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ،

فكان عمر يحيرهم ويحميمهم .

وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو وال له على المدينة ، أن يضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير ، بعد أن حدث عن النبي ، أنه قال « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً (١) ، ومال الله دولاً » . وكان خبيب من النساك المتبتلين ، وأسن ولد ابن الزبير ؛ وقد تعلم علماً كثيراً لا يعرف الناس وجهه ، ولا مذهبه فيه ، وبشبهه ما يدعى الناس من علم النجوم . فأتى به عمر بن عبد العزيز ، وأمر بجلده مائة سوط ، وحبس به ، وبرد له ماء في جرة ، ثم صبها في غداة باردة ، ولما اشتد بخبيب الوجع ، أخرجه من السجن ، ونقلوه إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ، واجتمعوا عنده حتى مات ، وبينما هم جلوس ، إذ جاءهم رسول عمر بن عبد العزيز ، يسأذن عليهم ، وخبيب مسجى بثوبه ، فقال عبد الله بن عروة . . . اكشفوا له عنه ، فكشفوا عنه ، ولما رآه الرسول ، انصرف ، وانهى إلى دار مروان ، فقرع الباب ، ودخل ، فوجد عمر كالمرأة الماحض قائماً وقاعداً ، فقال له : ما ورامك ؟ . . . فأجابه الرسول : مات الرجل . . . فسقط عمر إلى الأرض فزعاً ، ثم رفع رأسه يسترجع ، وقد جزع عمر لذلك جزعاً شديداً ، ويقال : إنه لبس المسوح سبعين

(١) خولاً : خدماً

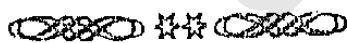
يوما حدادا على خبيب ، ثم أقلع عن ذلك . فلما استخلف
دفع دية خبيب إلى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد
مؤاخذه بذلك الذنب ، وكان إذا بشره أحدهم بالجنة ، قال
« .. كيف بخبيب على الطريق » .

ولا شك أن الوليد بن عبد الملك حين اختار عمر البديري
إنما اختاره لما يعلم من المشاكاة القوية بينه وبين هذه الولاية ،
ولم كان أخواله بين القوم فيها ، ولكن ما لبث الوليد طويلا
حتى صرف عمر بن عبد العزيز عن الحجاز بأمرين : أحدهما
للمدينة والآخر لمكة ، وكان أول ما صنعاه أن أخرجنا من
الحجاز كل عراقى فى الجوامع والأغاليل ، وتوعدا كل حجازى
أنزل عراقيا أو أجره داره ، وكان عمر بن عبد العزيز يحير
نوار العراق ويندد بعسف الحجاج ، فاضطفتها الحجاج عليه ،
وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يحير المارقين فى
العراق ، وأن ذلك موهن له ، ومضعف لشوكته . فنظر الخليفة
فى الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج فى هذه الخصومة ،
فالعراق أخطر من الحجاز ، والحجاج أولى بالمصانعة من عمر
ابن عبد العزيز ، وقد كان الحال بين ابن عبد العزيز والحجاج
على عداوة واضحة وخصومة ظاهرة ، بلغ الأمر بها أن كتب
عمر بن عبد العزيز - وكان الحجاج قد ولى موسم الحج -

إلى الخليفة يستعفيه أن يمر عليه بالمدينة ، فكتب الخليفة إلى
الحجاج : « إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى يستعفيني من يمر
عليه ، فلا عليك ألا تمر بمن كرهك . . فتسحى الحجاج عن
المدينة . ولما بلغ عمر موت الحجاج خر ساجداً ، ودخل الناس
على الوليد يمزونه ، ولم يمزه عمر ، فوجد الوليد من ذلك ،
وقال : « ما منعك يا عمر أن تهزني بالحجاج كما عزاني الناس ،
فقال عمر : « يا أمير المؤمنين ، إنما الحجاج منا أهل البيت ،
فدعنا نهزى به ، ولا نهزى .. قال الوليد .. صدقت . »

هذا ما كان من حكم عمر عبد العزيز في ولايته على
الحجاز ، أما من حيث حياة عمر الشخصية من تلك الفترة ، فكان
مترفاً مسرفاً في الترف ، يرخي شعره ، ويسبل إزاره ، ويلبس
الثوب تبليغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من الطيب ، ومن
طيب الطعام ، إذا مشى اختال في مشيته العمرية ، وإذا ركب
زيدته له الدواب ، وساق حولها الأموال والبدن ، وأهله على
خير من هذه الحال ، ناعمين بما آتاهم الله من بسطة في الرزق .
يؤثرها من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم .

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضباً للخليفة
الوليد ، وقد ساءه أن عزل من إمارة المدينة ، حتى أنه قال
لمولاه « مزاحم » وهو بالطريق ، وقد نظر إلى المدينة باكياً :
« يا مزاحم ، أخشى أن أكون من تنفيه المدينة . »
إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة تنفي خبيثها :
ولما وصل إلى الشام شغل نفسه بالغزو ، فراراً من وجه
الوايد بن عبد الملك ، والتماساً للأجر والسلوة .



إلى الورع والزهد

ولما توفي الوليد عام ٩٦ هـ وولى سليمان بن عبد الملك ، ليمه عمر ابن عبد العزيز ، وكان أثيراً عنده ، يستشير به سليمان ، وينزل على رأيه في كثير من الأمور ، وقد تأثر حكم سليمان بسلوك ابن عبد العزيز ومواعظه ، وما كان تصارع القيم الدينيّة في ذلك الوقت بمشغول عن منهجه في التمكن للقيم الأخروية ، وقد اتخذها عمر له طريقاً ، سلك سبيله وراض نفسه عليه ، وانتفع عمر بهزله عن إمارة المدينة ، فاندفع في السنوات التي قضّاها بالشام قبل أن يستخلف إلى النظر في حال الدولة الإسلامية في آخر القرن الأول الهجري .

نظر عمر ، فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت لها قديماً ، وأسرفت في الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، فحكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب ، حكومة تجبر وطغيان ، وحكومة سليمان بن عبد الملك حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ، وأصبح الساطان يعتمد في شد أركانه وتقويم دعائه على القوة الفاشية والسيف المسلول ، أما العدل ، وأما الرفق ، وأما الرحمة ، فلم يعد لكل ذلك محل ولا حساب . ونظر عمر - فإذا أموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب

من كل نواحيها ، فنحو من ثلث أموال الدولة قد استحالت ملكا
خاصا لبني أمية ، وأكثر الضرائب يجبي من غير وجوهه ،
ويصرف في غير مصارف الشرعية ، وكثير من أراضي الخراج
التي لا يصلح تملكها قد استحالت أرضا يملكها أفراد من
المسلمين ، ويؤدون عنها الزكاة التي يقل مقدارها عن مقدار
الخراج ، وكثير من الموالى المسلمين ، ومن مسلمي الأعاجم ،
لا يزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية . لغير ما سبب ، سوى
أن العمال لحظوا في إسلامهم معنى الفرار من الجزية ، فأبوا أن
يعفوا منها .

ولم يكن الموالى سواء هم والعرب في الحقوق ، فقد كانوا
ينغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء ، ثم إن هدم
إنفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء
والمساكين والمرضى والزمي ، ممن جعل لهم الشرع حقا في الصدقات
العامّة .

ثم نظر عمر ، فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ،
قد توزعت الفرق المتباغضة ، والأحزاب المتنافرة المتناحرة ،
فن شيعة يطوون صدورهم على الإحن والبغضاء لما نالهم به بنو أمية
من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام
القائم ، وإحلال نظامهم محله ، ومن موال قد ساء لهم ألا يسوى

بينهم وبين العرب في الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه .

هذا الحال في الداخل ، أما الحال في الخارج ، فقد رأى عمر أن الجهاد الذى شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والمنع العدوان على النفس والعقيدة ، قد استحال في زمن الأمويين ، أداة للتوسع في السلطان ، وجبر المظنم الوافر ، والسبى الرائع ، حتى قل الشاعر :

ألا ذهب الغزو المقرب للفتى ومات الندى والجود بهذا الملهب
نظر عمر في كل ذلك ، فردّه إلى سبب جوهري واحد .
هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه ،
أساس الدين ، والدين عند عمر بن عبد العزيز هو الدين المتصل
بالحياة العامة ، يمدّها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون
الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، وهو الدين الذى أثره في
الحاكم شعور قوى بالمسؤولية ، وعمل صادق على إسعاد العباد
والترفيه عنهم ، والذى أثره في المحكرمين اقتضاء للعدل إذا حرموه ،
وأنفقة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما ، الدين عند عمر
ابن عبد العزيز هو الحق والإنسانية ، عبر عنهما بلفظ واحد ،
هو الدين .

وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة
متعرفا على عالمها ، إذا به في الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور
نفساني عنيف . لقد أخذ حرصه على الزلف والتنعم يضعف
رويدا . . رويدا ، وميله إلى الزهد والتنسك يقوى شيئا فشيئا ،
وأصبحت نظراته ، إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل ، لا يعدل
شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم
التفكير في الموت وفيما بعد الموت ، فالموت آت لا ريب فيه ،
والموت برزخ هؤد إما إلى الجنة وإما إلى نار ، والمنتهى على
حال رهين بما يكون عليه المرء في العدوة الدنيا من ذلك البرزخ
الرهيب .

ولأن سر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز
الرجل الناعم المشرف ناسكا زاهدا متصرفا يرجع إلى أمرين :
ففسية عمر بن عبد العزيز من جهة ، وتأثره بالحياة الإسلامية
العامة لذلك العهد من جهة أخرى ، وقد كان في عمر بن
عبد العزيز نزوع طبعي إلى الزهد ، فهو سلالة عمر بن الخطاب ، وكان
في طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد . . عبد الله بن عمر ، ولما
تورط ابن عبد العزيز في أمر خبيث اهتز كيانه ولبس المسوح
سبعين يوما ، يأسا من غضارة العيش ولذاذة الحياة ، وكفارة من
ذنب دفعه إليه ولايته على المدينة .

ثم إن الحياة الإسلامية قد أملت بها في أواخر القرن الأول
نزعة زهد جاءت مثل رد فعل البادية التي طغى عليها إذ ذاك ،
وهذه النزعة هي التي تحولت بعد إلى الحركة الصوفية في طبقة
العباد والنساك . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في
المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عبيد الله بن عبد الله
ابن عتبة ، ولما صار بالشام خضع لتأثير رجلين من أقطاب
عصرهما ، علياً وزهداً وورعاً ، وهذان الرجلان هما : « الحسن
البصري » و« رجاء بن حيوة الكندي » . وقد اتصل ابن عبد العزيز
بالحسن البصري عن طريق المراسلة ، وأخذ عنه كراهية القول
بالقدر الذي ينسب إلى الحسن خطأ ، وأما رجاء فقد كان
مستشار سليمان بن عبد الملك ، وكان لذلك أقرب إلى عمر
وأقوى به اتصالاً . وكما أنتج النظر في الأحوال العامة لعمر
ضرورة الرجوع إلى الدين في إصلاح غيره . فقد أنتج له مزاجه
الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ، ضرورة الزهد من أجل
النفوس وتهذيبها ، فكان الدين والزهد هما الخلتان اللتان كانتا
تفهمان فؤاد عمر وقلبه .

خرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج
من مخارجه ، لم يكن عمر قدم فيه نقدا ، فبلغ المنزل ، وصار
كل رجل إلى مضربه الذي قدمه ، وصار سليمان إلى حجرة ،
ثم فقد عمر ، فقال سليمان ، اطلبوه ، فما أراه قدم شيئا .
فطلب عمر ، فوجد تحت شجرة باكيا ، فأخبر سليمان بذلك ،
فدعاه ، وقال له : « ما يبكيك يا أبا حفص ؟ فقال عمر :
« أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة ، من قدم
شيئا وجده ، ولم أقدم شيئا ، فلم أجد شيئا . »

وخرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك يريد
الصابئة (١) ، فالتقى غلمانا مع غلمان سليمان على الماء ، فاقتلوا ،
فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فشكوا ذلك إلى سليمان ،
فأرسل إلى عمر ، فقال له : ضرب غلمانك غلماني ، قال :
ما علمت هذا قبل مقاتلتك الآن ، فقال له سليمان : كذبت .
قال عمر : « ما كذبت منذ شددت على إزارى ، وعلمت أن
السكران يضر أهله ، وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسعة . . .
وتجهز عمر ، يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان ، فشقى عليه .
فدخلت فيما بينهما عمة لهما ، فقال لها ، سليمان : قولى له ، يدخل

(١) غزوة الروم لأنهم كانوا يفتنون صيفا .

علي ، ولا يعاتبني . فدخل عليه عمر ، واعتذر له سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ، ما اغتممت بأمر ، ولا أكرهني أمر إلا خطرت فيه علي بالي ، فأقام عمر .

وكان عمر بن عبد العزيز ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية (١) ، ويشير عليه أن يضمهم الحبس ، حتى يحدوا ، توبة ، فأتى سليمان بحروري مستقل ، فقال له سليمان : إيه .. فقال الحروري : نزع الله لحبيك يا فاسق بن الفاسق .. قال سليمان : علي بعمر بن عبد العزيز : فلما أتاه عمر ، عاود سليمان الحروري ، فقال له : ماذا تقول ؟ ، قال : وماذا أقول يا فاسق بن الفاسق ؟ فقال سليمان لعمر : يا أبا حفص : ماذا ترى فيه .. ؟ فسكت عمر ، فقال سليمان : عزمت عليك لتخبرني ماذا ترى عليه ؟ . قال عمر بن عبد العزيز : أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك ، فقال سليمان : ليس إلا ؟ ، قال : ليس إلا ، فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بالحروري ، فضربت عنقه .

ودخل عمر بن عبد العزيز علي سليمان بن عبد الملك ، وعنده أيوب ابنه ، وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ،

فجاء إنسان يطلب ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان :
« ما إخال النساء يرثن في العقار شيئا » ، فقال عمر بن
عبد العزيز : « سبحان الله ، وأين كتاب الله » فقال سليمان « يا غلام ،
اذهب فائتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتبت فيه ذلك ،
فقال عمر ، لكأنك أرسلت إلى المصحف » . فقال أيوب بن
العهد « والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ،
ثم لا يشعر ، حتى يفارقه رأسه » . فقال له عمر : « إذا
كان هذا الأمر إليك ، وإلى ضربائك ، كان ما يدخل على العامة
من ضرر ذلك أشد مما يدخل على ذلك الرجل من ضرب وجهه » ،
فقال سليمان لأيوب : « مه ، لأبي حفص تقول هذا . . »
فقال عمر : « والله أن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حللنا
عليه ، وإن كان عجل علينا فقد استوفينا » .

وحج سليمان ومعه عمر ، فأصابهم مطر شديد ، ورعد
وبرق ، فقال سليمان : هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص ؟ ،
فقال يا أمير المؤمنين : « هذا في حين رحته ، فكيف به في حين
غضبه ؟ » . وبينما سليمان يسير ذات ليلة على راحلته قرب
مكة ، وقد أخذه النعاس ، إذ صاح به المجذمون ، وضربوا
بأجراسهم ، فاستيقظ سليمان فزعا ، وقد بشع بهم وأفزعوه ،
فأمر بتحريقهم بالنار ، فرجع المأمور وما يدري ما يصنع

بهم ، حتى لقي عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أبا حفص ، حدثني أمر عظيم من أمير المؤمنين . وذلك أنه مر بهؤلاء الجندي ، وهو نائم على راحلته ، فراه من نومه صياحهم ، وضرب أجراسهم ، فغضب ، وأمر بتحريتهم ، فقال له عمر : « لا تمجل ، حتى ألحقه ، فلاحقه ، وسأدته ساعة ، ثم قال : يا أمير المؤمنين هل رأيت مثل هؤلاء المبتلين ، ففسأل الله العافية ، فلو أمرت بإخراجهم ؟ قال سليمان : « أصبت » . وأمر بإخراجهم ، فرجع عمر وراه ، فقال للأمر : « قد أمر أمير المؤمنين بإخراجهم » .

ولما أشرف سليمان بن عبد الملك ، وهو في حجه ، على عقبة عسفان (١) ، نظر إلى عسكره ، فأعجبه ما رأى من حجره وأبنيته ، فقال لعمر : « كيف ترى ما هنا يا عمر ؟ » قال عمر : أرى دنيا يا كل بعضها بعضا ، وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بما فيها .

ونظر سليمان إلى الناس ، وقال لعمر : « ما أكثر الناس . » . فأجابه عمر : « هم خصماؤك يوم القيامة يا أمير المؤمنين » . فقال له سليمان « ابتلاك الله بهم » . وأعطاه

(١) مكان قريب من مكة بينها وبين المدينة .

مائة ألف درهم ليتصدق بها ، فقال له عمر : « أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين . . ؟ » فقال سليمان : « وما هو ؟ » . فقال ابن عبد العزيز : « قوم صحبوك في مظالم لهم ، لم يصلوا إليك » . فجلس سليمان مجلس القضاء والنظر ؛ ورد المظالم .

وحدث ذات مرة أن سمع سليمان بن عبد الملك غناه في عسكره ، فأرسل إليهم بكرة ، فجئ بهم ، وقال لهم : « إن الفرس ليصل قستودق (١) له البغلة ، وإن الفحل ليخطر ، فتضبيع له الناقة ، وإن التيس لينب فتستجوم له المنزه ، وإن الرجل ليغني فتشتاق إليه المرأة » ثم قال سليمان : « انصوهم » فقال له عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ في مجلسه :
« هذه مثلة ولا تحل » نفلى الخليفة سليمانهم .

وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة ، فأعطى بها مالا عظيما ، وقال لعمر بن عبد العزيز : « كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟ قال عمر : « رأيتك زدت أهل الغنى غنى ، وتركت أهل الفقر بفقرهم . . . »

(١) يقصد التجاوب الجنسي بين مؤنث الحيوانات وذكرها .

ولما عزم الوليد بن عبد الملك أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، وأن يعهد بها إلى ابنه عبد العزيز متبعا سبيل معاوية ، مخالفا ما كان عليه سلفه من العهد بها إلى الأخوة ، امتنع عن القبول عمر بن عبد العزيز ، وقال للوليد : « إنا بايعناكم في عقدة واحدة ، فكيف نخلعه ونتركك ، إن في أعناقنا لبيعة » فطين (١) عليه الوليد ، وشفع له بعد ثلاث ليال ، فأدركوه وقت مالت عنقه .

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى « زيد بن حسن بن أبي طالب » يسأله أن يبائع لعبد العزيز بن الوليد ، ويخلع سليمان ابن عبد الملك ، ففرق زيد من الوليد ، فأجابه . فلما استخلف سليمان ، وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك . فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - أدع زيد بن حسن ، فأقرئه هذا الكتاب ، فإن عرفه ، فاكتب إلى بذلك ، وإن نكل . فقدمه ، فأظهره يمينه على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كتب هذا الكتاب ولا أمر ، فأرسل إليه أبو بكر ابن حزم ، فأقرأه الكتاب . فقال زيد : « انظرنى ما بين وبين العشاء أستخير الله . وأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد

(١) حبسه وسد عليه بالطين .

رسالم بن عبد الله يستشيرهما ، وقال : إني لم أكن آمن الوليد
على دمي لولم أجهده ، وقد كتبت هذا الكتاب ، أفتررون أن
أحلف ، فقالوا : « لا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نرجو أن ينجيك الله بالصدق » .
فأقر زيد بالكتاب ، ولم يحلف . فكتب أبو بكر بن حزم
بذلك إلى سليمان ، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه
مائة سوط ، ويدرسه عصابة ، ويمشي به حافيا . فتشكى سليمان ،
وقال عمر بن عبد العزيز للرسول : لا تخرج حتى تكلم أمير
المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعل أستطيب نفسه
فيترك هذا الكتاب . وحبس الرسول والكتاب ، ومرض سليمان ،
فقال عمر : « لا تخرج ، فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن دمي
في جنازة سليمان ، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فدعا
بالكتاب ، فخرقه » .



الخليفة عمر بن عبد العزيز

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية ، ولكن ذبوع فضله وسموه الروحى على سائر بنى أمية لفتت إليه نظر أولي الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندى ، وابن شهاب الزهرى ، ومكحول الشامى ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك « بدابق » مرضه الذى مات فيه ، ولم يكن له ولد بعد وفاة ابنه « أيوب » إلا أولاد صفار ، حضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة الكندى ، فقال سليمان لرجاء : وقد أراد أن يستخلف - أعرض على ولدى فى القمص والأردية . فعرضهم عليه ، فإذا هم صفار لا يحملون ما لبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحباً ، فنظر إليهم وقال : يا رجاء . .

إن بنى صديّة صفار أفلح من كان له كبار

فقال له عمر : يا أمير المؤمنين ، يقول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » ثم قال سليمان : يا رجاء ، أعرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صفار لا يحملونها ، يحرقونها جراً ، فنظر إليهم ، وقال :

إن بنى صليبة صيفيون أفلاح من كان له ربحيون
فأعاد عليه عمر ما قال له أولا ، فلما لم ير سليمان في ولده ما يريد ،
شاور « رجاء » فيمن يعقد له ، فأشار عليه رجاء بعمر ، وسدد له
رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : « لأعقدن عقدا لا يكون
الشیطان فيه نصيب ، ولما اشتد بسليمان وجعه لم يزل به رجاء بن
حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده
ليزيد بن عبد الملك ، وكتب سليمان العهد بيده ، ولم يطلع عليه
أحد إلا رجاء بن حيوة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير
المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني قد وليته الخلافة بعدى ،
ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا
ولا تختلفوا ، فيطمع فيكم .»

وأمر سليمان أن تؤخذ البيعة من بنى أمية لمن سمي في عهده دون
أن يعينه لهم ، وعاد عمر سليمان مع بعض أهل بيته ، فأوا به
الموت ، ومشى عمر بن عبد العزيز وسعيد بن خالد ورجاء بن حيوة
إلى خارج ، وتخلف عن السير قليلا كأنه يعالج نعليه ، حتى أدركه
رجاء . فقال له عمر : يا رجاء ، إني أرى أمير المؤمنين في الموت ،
ولا أحسبه إلا سيهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من
ذلك إلا صدته عني ، وإن لم يذكرني ، ألا تذكرني له في شيء من

ذلك ، . فقال رجاء لعمر . لقد ذهب ظنك مذهبها ما كنت
أحسبك تذهب به ، أظن بنى عبد الملك يدخلونك في أمورهم . وقد
كان سليمان فرغ من ذلك ، ولكن رجاء أراد إخفاءه عن عمر .
ولما قضى الله على سليمان بالموت كتب رجاء بن حيوة خبر موته
عن الناس ، ثم خرج اليهم ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين
يأمركم بتجديد البيعة لمن كان عهد إليه . وقد أصبح بحمد الله
صالحا . . . فقالوا « أوصلنا إلى أمير المؤمنين . لننظر إليه ،
وننفذ أمره ، فدخل رجاء ، فأمر بسليمان . فأستند بالوسائد .
وأقام عنده خادما . وأمر الناس . فأدخلوا عليه . يقفون عند
الباب فيسلمون من بعيد . وهم يرون شخصه : ثم قال رجاء :
« يأمركم أمير المؤمنين . أن تباعوا لمن عهد إليه . وتسلموا له .
وتطيعوا » .

خرج العواد إلى المسجد . والناس مجتمعون : وجوه بني مروان .
وبني أمية . وأشرف الناس . فباعوا . حتى إذا رضى رجاء من
ذلك ، نظر في القوم فإذا هو لا يرى عمر . فخرج يتلمسه . حتى رآه
في أقصى المسجد . فوقف عليه . وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين .
ورحمة الله وبركاته » وقرأ رجاء كتاب الخليفة الراحل على الناس .
ولما انتهى إلى ذكر عمر . نادى هشام بن عبد الملك « لا نبايعه أبدا »
فاشتد برجاء الغضب ، وقال لهشام « والله أضرب عنقك . . قم فباعه

فقام يجرر رجليه ، وأخذ رجاء بضبعي (١) عمر ، فأجلسه على المنبر ، وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه . ولما انتهى هشام إلى عمر . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . حين صار هذا الأمر إليك على ولد بن عبد الملك » فقال عمر : « نعم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، حين صار إلى لسكراحتي له » . وكان هذا في ٢٠ صفر سنة ٥٩٩ هـ .

ولما جهز سليمان ، وفرغ ابن عبد العزيز من دفنه ، سمع للأرض رجة ، فإذا الغلمان قد أتوا بمراكب الخلافة : البراذين والخيول والبغال ، ولكل دابة سائس ؛ فقال عمر « ما هذه ؟ » قالوا : مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها . فقال : مالي ولها ، نحتوها عني ، دابتي أوفق لي ، فتقربوا إليه بغلته فركبها ، وصرفت تلك الدواب .

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة . فقال له عمر « تنح عني ، مالي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، ثم أقبل سائرا ، فقيل له : « تنزل منزل الخلافة » فقال : « فيه عيال أبي أيوب - سليمان بن عبد الملك - وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا ، وأقام في منزله حتى فرغوه بهد .

ثم سار عمر وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فوجد
المنبر ، واجتمع الناس فقال :

« أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي
كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد
خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم » . فصاح
الناس صيحة واحدة « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا
بك ، قل أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ،
ورضى به الناس جميعا . حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي
صلى الله عليه وسلم . » وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ،
وإيس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ،
فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ،
وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا
ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له ، قبل أن ينزل بكم ،
فإنه هادم الملذات ، وإن من لا يذكر من آباءه - فيما بينه وبين
آدم عليه السلام - أبا حيا لمعرق في الموت . »

وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها
صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار
والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدا
حقا ، إني لست بخازن ، واسكني إنما أضع حيث أمرت .

أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاة يجترون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظالمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ، أقول قولي هذا . وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

ثم ذهب عمر يتبواً مقبلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني ، أقتل ، قال : تقتل ولا ترد المظالم ؟ فقال « أي بني ، إني قد سهرت في أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم » . فقال له ابنه « يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال « أدن مني ، أي بني ، فدنا منه ، فالتزمه وقبل بين عيني » ، وقال : « الحمد لله الذي أخرج من صلبى من يعينى على ديني » . وخرج عمر ولم يقل ، وأمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فلايرفعهما ، فجعل لا يدع شيئاً مما كان في يد سليمان وفي يد أهل بيئته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

وجاء « خالد بن الريان » إلى عمر بن عبد العزيز ، وقام بين يديه مقام صاحب الحرس ، وكان قبل على حرس الوليد وسليمان ، فنظر إليه عمر ، وقال له : « يا خالد ، ضع هذا

السيف عنك ، اللهم ، إني قد وضعت لك خالد بن الريان ،
اللهم لا ترمغه أبدا ، اللهم ، إني لأذكر بأسمه وهيبته .
ثم نظر ابن عبد العزيز في وجوه الحرس ، ودعا عمرو بن مهاجر
الأنصاري ، وقال له « إنك لتعلم يا عمرو أن ما بيني وبينك
قربة الإسلام ، ولكني قد سمعتك تسكّر تلاوة القرآن ،
ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك فيه أحد ، فرأيتك
تحسن الصلاة ، خذ هذا السيف ، فقد وليتك حرسى » . وخذ
ذكر « ابن الريان » فلا يذكر ، حتى إن الناس ليقولون ،
ما فعل خالد ، أحى هو أم قد مات . . .

وبات عيال سليمان بن عبد الملك الخليفة الراحل يفرغون
الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون
من ثياب أبيهم ما لم يلبس ، حتى تتكسر الثياب ، وكان الخليفة
إذا مات ، فما لبس من الثياب ، أو مس من الطيب ، كان لولده ،
وما لم يلبس من الثياب ، وما لم لمس من الطيب . فهو للخليفة
بعده ، ولما أصبح عمر ، قال له أهل سليمان « هذا لك ،
وهذا لنا » فقال عمر « وما هذا ، وما هذا ؟ » . قالوا :
« هذا ما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب ، فهو لولده
وهذا ما لم لمس ، ولم يلبس ، فهو للخليفة بعده ، وهو لك »

فقال عمر « ما هذا لي ولا لاسليمان ، ولا لكم » ولكن
يا مزاحم (١) ، ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين ، ففضل ،
وتشاور الأمراء والوزراء ، وقالوا : « أما المراكب والسراقات
والحجر والشوار (٢) ، فليس فيه رجاء بعد أنه كان منه فيه
ما قد علمتم ؛ وقد بقيت خصلة ، وهي الجوارى ، فنعرضن
عليه ، فمسي أن يكون ما تريدون فيهن ، وإلا فلا طمع لكم
عنده ، وأتى بالجوارى ، فعرضن على عمر ، كأمثال الدمي ،
فلما نظر إلهن عمر ، جعل يسألن واحدة واحدة ، من أنت ؟
ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ، فتخبره الجارية بأصلها ، ولمن
كانت ، وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى إلهن ، ويحملن
إلى بلادهن ، حتى فرغ منهن ، ولما رأى القوم منه ذلك أيسوا
منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق .

* * *

ودعا عمر بن عبد العزيز بدواة وقرطاس ، وكتب ثلاثة
كتب ، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها ،
فأمضاها من فوره ، والناس في تساؤل وهمز يقولون ، ما هذه
العجلة ؟ أما كان يصبر حتى يرجع إلى بيته . . إن هذا هو
حب السلطان ، هذا الذي يكره ما دخل فيه ، ولم يكن بهمر

(١) «ولى عمر بن عبد العزيز وساعده . (٢) متاع البيت .

عجلة ، ولا محبة ، ولكنه حاسب نفسه ، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك بالقفول من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغراه لإياها برا وبحرا ، وأشفي على فتحها ، ثم خدع عنها ، وبلغ ذلك سليمان ، فغضب بما فعل به ، وحلف ألا يقفله منها ، ما دام حيا ، واشتد على الجند المقام ، وجاءوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع ، ويتنحى الرجل عن دابته ، فتقطع بالسيوف ، وبلغ رأس الدابة كذا وكذا من الدراهم ، وبلغ سليمان بن عبد الملك في أمرهم ، فكان هذا يغم عمر بن عبد العزيز ، ولما ولي رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلى شيئا من أمور المسلمين ، ثم يؤخر قفولهم ساعة .

وكتب عمر بن عبد العزيز كتابا بعزل أسامة بن زيد التبوخي ، وكان على خراج مصر ، وأمر به أن يحبس في كل جندھا سنة ، ويقيد ، ويحل عنه القيد عند كل صلاة ، ثم يرد في القيد ، وكان أسامة غاشما ظلوما ، مهتديا في العقوبات بخير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدي في غير ما أمر به ، فحبس أسامة بمصر ، ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس في جندھا سنة .

وكتب عمر بعزل « يزيد بن أبي مسلم » عن إفريقية ،
وكان ، يظهر التآلة ، والنفاذ لسكل ما أمر به السلطان ، بما
يجل أو صغر من السيرة ، بالجور والمخالفة للحق ، وكان
في هذا يكثر الذكر والتسبيح ، ويأمر بالقوم ، فيكونون بين
يديه ، يعذبون ، وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ، شـد
ياغلام موضع كذا وكذا . لبعض مواقع العذاب ، وهو يقول :
« لا إله إلا الله ، والله أكبر ، شـد ياغلام موضع كذا وكذا ..
فكتب عمر بهزله .



المظالم

وسار عمر بن عبد العزيز إلى داره ، فقام الناس بين يديه .
فقال لهم : « يا معشر الناس . إن تقوموا تقم ، وإن تقعدوا
تقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض ، وسن
سنناً ، من أخذ بها الحق ، ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا ،
فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا
من العدل إلى ما لا نهتدي إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي
الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغتب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو
في حرج من صحبتنا والدخول علينا » وكان عمر بن العزيز يتقدم إلى
الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا إليه ، ويقول لهم لا تبدؤوني
بالسلام ، إنما السلام علينا لكم .

واحتجب بن عبد العزيز عن الناس ثلاثاً لا يدخل عليه أحد
ورجوه بن مروان وبنو أمية ، وأشرف الجنود والعرب ببابه ينظرون
ما يخرج عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث ، وحملهم على شريعة
من الحق ، فعرفوها ، ورد المظالم ، وبدأ في ذلك بنفسه وقال :
لأنه لينبغي ألا أبدأ بأول من نفسي ، وانظر إلى ما في يديه من أرض
أو متاع ، فخرج منه ، حتى نظر إلى فصوص خاتم كان في يده وقال :
هذا أعطانيه الوليد من غير حقه ، مما جاء من أرض المغرب ، فردته .

وخرج مما كان في يده من القطائع ، وكان له منها قطائع باليامة ،
والمكيدس وحبيل الورسي بالين وفدك ، فخرج من هذا كله ، وردّه
إلى المسلمين ، واستبقى لنفسه عينا كانت له بالسويداء ، استنبطها
بعماله وطيب ماله ، فكانت تأتيه غلاتها كل سنة ، مائة وخمسون
دينارا ، وأعاد لأولاد « فاطمة » رضى الله عنها أرض « فدك »
وكانت تقل كل سنة عشرة آلاف درهم ، وكتب إلى عامله بالمدينة
أبي بكر بن حزم كتابا يقول فيه : إني نظرت في أمر فدك ،
فإذا هو لا يصلح ، فرأيت أن أردّها إلى ما كانت عليه في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ، فاقبضها ،
وولها رجلا يقوم عليها بالحق ، وسلام عليك .

وثني عمر بن زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان
عندها جواهر ، أمر لها بها أبوها ، لم ير مثلاً ، فقال لها : يا فاطمة ،
اختاري ، إما أن تردّي حليّك إلى بيت المال ، وإما أن تأذني في قراقك
فإني أكره أن أكون أنا وأنت في بيت واحد . قالت : لا ، بل
أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي . فأمر به عمر .
فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين . ولما مات عمر ، واستخلف من
بعده يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة ، إن شئت رددته عليك .
قالت . فإني لا أشأؤه ، طبت عنه نفسا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد
موته ! . لا والله أبدا .

وأمر عمر فتودى فى الناس . الصلاة جامعة . وصعد المنبر ،
حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال . « أما بعد ، فإن هؤلاء القوم
قد كانوا أعطونا عطايا ، ما كان ينبغي لنا أن نأخذها ، وما كان
ينبغي لهم أن يعطواناها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه
دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتها وبدأت بنفسى . وأهل بيتى ،
اقرأ يا مزاحم — وقد جرى قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب —
بفعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا ، فيأخذ عمر . ويأخذ مقرر .
فيقصه به . حتى لم يبق فيه شيء . إلا شقه .

ولم يكتف عمر برد ما كان فى يده من المظالم ، بل إنه كان
لا يأخذ من بيت المال شيئا . ولا يجرى على نفسه من الخيـ
درهما . وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين
فى كل يوم فقيل لعمر بن عبد العزيز : « لو أخذت ما كان
يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال ابن عبد العزيز ، إن عمر بن
الخطاب لم يكن له مال . وأنا مالى يغنينى .

وكذلك حمل عمر بن عبد العزيز بنى مروان على النزول عما
كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق ، وردها إلى ذويها ،
وقد جاءه رجل ذى من أهل حمص ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أسألك
كتاب الله » قال : وما ذاك ؟ قال . العباس بن الوليد بن
عبد الملك اغتصب أرضى . والعباس يجالس . فقال : يا عباس

ما تقول ؟ . قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك
وكتب لي بها سجلا ، فقال : ما تقول يا ذى ؟ قال : يا أمير
المؤمنين ، أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ،
كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، يا عباس
أردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يدعى « روح » وكان روح
هذا قد نشأ في البادية كأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى
عمر يخاصمونه روحا في حوانيت بهمص كانت لهم ، وأقطعه إياها
أبوه الوليد ، فقال له عمر : أردد عليهم حوانيتهم ؛ فقال روح
له : إنها لي بسجل من الوليد ، فقال عمر : ما يفنى عنك سجل
الوليد ، الحوانيت حوانيتهم ، وقد قامت لهم البينة عليها ، خل
لهم حوانيتهم . فقام روح والخصيون منهصرفين ، وتوعد روح
حمصيا منهم ، فرجع الحمصي إلى عمر ، فقال له : هو والله
يتوعدنى يا أمير المؤمنين ، فقال عمر للحارس : « أخرج إلى
روح ، فإن سلم إليهم حوانيتهم فذاك ، وإلا فأتى برأسه ،
أخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، وذكر له الذى
أمر به عمر ، فانتزع قواده ، وأخرج إليه الحارس ، وقد سل
من السيف شبرا ، وقال له : قم ، فخل لهم حوانيتهم ، فقال
روح « نعم » نعم ، وخلي الحوانيت .

وتتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظالة إلا ردها ، سواء كانت في يده أو في يد غيره ، حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم ، بما صار إليهم ظلما ، وكان يكتفي في رد المظالم باليسير ، فإذا عرف وجه مظالة الرجل ردها عليه ، لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس ، وقد روى أنه أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم على أهله ، ولما نفذ حمل إليه من الشام .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر عنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار ، ودارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، وتوفي سليمان قبل أن يتقبضها عنبسة ، وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، ففعلوا عليه يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بني أمية حضورا بباب عمر ، يريدون الإذن عليه ، ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة ، قالوا : نتظر ما يصنع به قبل أن نكلمه .

ودخل عنبسة على عمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لي بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفي سليمان على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الضيعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان . فقال

له عمر : كم ذلك ؟ . قال : عشرون ألف دينار . . فقال له عمر
« عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ،
وأدفعها لرجل واحد . . ! والله مالي إلى ذلك من سبيل » .
فرمى عنبة بالكتاب الذي فيه الصك ، فقال له عمر : لا عليك
أن يكون منك ، فلعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال
مني ، فيأمر لك به . . فأخذ عنبة الكتاب ، وخرج إلى بني
أمية ، فأعلمهم ما كان ، فقالوا : « ليس بعد هذا شيء ، ارجع
إليه ، فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان » فرجع إليه عنبة
وقال : يا أمير المؤمنين « إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى
عليهم ما كانت من قبلك تجرى عليهم » فقال عمر . والله
ما هذا المال لي ، ومالي إلى ذلك من سبيل . . فقال عنبة :
« يا أمير المؤمنين . فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان »
قال عمر . ماشاءوا ، ذلك لهم ، وقد أذنت لهم » فقال عنبة
وأنا أيضا » قال « وأنت أيضا ، قد أذنت لك ، ولكنني أرى
لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان
فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض بما
فانك » .

رجع ابن عبد العزيز بن مروان ، فقال لهم : . يا بني مروان ، إنكم
قد أعطيتهم حظا وشرفا وأموالا ، وإنني لأحسب شطر أموال هذه الأمة

أو نلثيها في أيديكم . فأدبر ما في أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلبثوني إلى ما أكره ، فأحملكم على ما تسكرهون ، . فلم يجبه واحد منهم . فقال : أجيبوني ، فقال رجل منهم ، والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آباءنا ، فننقر أبناءنا ونسكفر آباءنا ، حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا ، فقال عمر . والله لولا أن تستعينوا علي بمن طلب هذا الحق اه لأضرت خدودكم عاجلا ، واسكني أخاف الفتنة ، وإن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله .

ولما منع عمر قرابته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة ، وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم . شكوه إلى عمة ، فدخلت عليه وقالت : إن قرابتك يشكونك . ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك ، قال عمر : ما منهم حقا أو شيئا كان لهم ، فقالت العمة . إني رأيتهم يتكلمون . وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوما عصيبا ، فقال عمر . كل يوم أخافه دون يوم القيامة . فلا وقاني الله شره ، فرجعت إلى بني أمية ، وقالت لهم : ذوقوا مغبة أمركم في تزويجكم آل عمر ابن الخطاب .

وجنح بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز بهم . فاجتمعوا إلى عمر ابن الوايد بن عبد الملك . وكان كبيرهم وشيخهم . وسأله أن يكتب إلى عمر يوبخه . لعله أن يرده عن مسامتهم فكتب إليه

« إنك أذريت علي من كان قبلك من الخلفاء . وعبت عليهم . وسرت
بغير سيرتهم . وسميتها المظالم . بغضا لهم وشنأنا لمن بعدهم من
أولادهم . وقطعت ما أمر الله به أن يوصل . إذ عمدت إلى أموال
قریش وموارثهم . فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا . يا ابن
عبد العزيز . اتق الله وراقبه إن شططت . لم تهامن علي منبرك حتى
خصصت أول قرابتك بالظلم والجور . فوالذي خص محمدا صلى الله عليه
وسلم بما خصه به . لقد ازددت من الله بعدا في ولايتك هذه . إذ
زعمت أنها عليك بلاء . فاقصر بعض ميلك . واعلم أنك بعين جبار .
وفي قبضته . وإن ترك علي هذا . »

فلما قرأ عمر كتابه . كتب إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمر المؤمنين إلى عمر
ابن الوليد . السلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين . أما بعد .
فإنه بلغني كتابك وسأجيئك بنحو منه . أما أول شأنك يا ابن الوليد .
فإن أول أمرك يا فلان . أن أمك بذاته « أمة السكون » كانت تدخل
دورهم . وتطوف حوانيتها . والله أعلم بها . ثم اشتراها دينار بن دينار
من فيء المسلمين . فأهداها إلى أبيك . فحملت بك ، فبئس المحمول . وبئس
الجنين ، ثم نشأت ، فكنت جبارا شقيا ، كتبت إلى تظلمي
وزعمت أن حرمتك وأهل بيتك في مال المسلمين الذي فيه حق

القراية والضعيف والمسكين وابن السبيل ، وإنما أنت كأحدكم
 لك ما لهم ، وعليك ما عليهم ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله
 الذى استعملك صديقا منفيها ، تحسبكم فى دماء المسلمين وأموالهم
 برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ،
 ولم يكن ذلك له ، ولا حق له نية ، فويلك وويل أيك ،
 ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ، وكيف النجاة لمن
 كثير خصماءه . وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جمل لعالية
 البربرية سبها فى فى المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت ؟ نسكتك
 أمك ، أم بايعت بيعة الرضوان ، فلتستوجب سهام المقاتلين ؟
 وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل « قرة بن شريك »
 أعرابيا جلفا على مصر ، وأذن له فى المعازف واللهو والخمر ،
 وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من ولى يزيد بن أبى مسلم على
 جميع المغرب ، يحبى المال الحرام ويسفك الدم الحرام . رويدك
 لو قد التقت عليك حلقتا البطان وطالت فى حياة ، ورد الله الحق
 إلى أهله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأفتبكم على المحجة البيضاء ،
 فطالما أخذتم بنيات الطريق ، وتركتم الحق وراءكم ، وما وراء
 هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبته ، بيع رقبتك ، فإن لكل
 مسلم فيك سبها فى كتاب الله ، والسلام على من اتبع الهدى ،
 ولا ينال سلام الله الظالمين .

وكان عمر بن عبد العزيز أشد ما يكون على بنى أمية ، اجتمع مرة بنو مروان ، فقالوا « لو دخلنا على أمير المؤمنين فخطبناه علينا ، واذكرناه أرحامنا ، . فدخلوا عليه ، وتسكلم رجل منهم فمزح . فنظر إليه عمر ، فوصل له رجل كلامه بالمزاح ، فغضب عمر وقال لهم : لهذا اجتماعكم ، لأخس الحديث ، ولما يورث الضعفاء ، إذا اجتماعكم فأفيضوا في كتاب الله ، فإن تعديتم فعليكم بمعالى الحديث .

ودخل ابن سليمان بن عبد الملك على ابن عبد العزيز . وقال يا أمير المؤمنين أما ترد قطيعتي ، « فقال عمر ، معاذ الله أن أرد قطيعة رسخت في الإسلام . قال . فهذا كتابي ، وأخرج كتابا من كفه ، فقرأه عمر ثم قال ، « لمن كانت هذه الأرض ؟ قال « للفاسق ابن الحجاج . قال عمر ، فهو أولى بماله . قال يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين . قال . فالمسلمون أولى بها . قال . يا أمير المؤمنين ، رد على كتابي . قال « لو لم تأتني به لم أسألك ، فأما إذا جئتني به ، فلا ندعك تطالب بباطل . فبكى ابن سليمان . فقال مزاحم . يا أمير المؤمنين « ابن سليمان ، تصنع به هذا ؟ . قال . ويحك يا مزاحم إنها نفسى أحاول عنها ، وإنى لأجد له ما أجد لولدى .

وحدث هشام بن عبد الملك أنه قال لعمر بن عبد العزيز :
« يا أمير المؤمنين ، إني رسول قومك إليك ، وإن في أنفسهم
ما أكلمك به ؛ إنهم يقولون ، استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ،
وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم ، فقال له عمر :
أرأيت إن أتيت بسجلين ، أحدهما من معاوية ، والآخر من
عبد الملك بأمر واحد ، فبأى السجلين آخذ ؟ ... قال هشام
« بالآقدم » فقال عمر : فأني وجدت كتاب الله الآقدم ، فأنا
حامل عليه من أتاني من تحت يدي وفيما سبقني . »

وكلم سعيد بن خالد بن عمر بن عثمان الخليفة عمر في أمر
بنى أمية ، أن يرد عليهم بعض ما كان لهم وقال : يا أمير
المؤمنين ، امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل ، واخل عن
سبقك ، وعما ولي ، خيره وشره ، فإنك مكنت بذلك . فقال
له عمر « أنشدك الله الذي إليه نعود ، أرأيت لو أن رجلا
هلك ، وترك بنين صغارا وكبارا ، فمز الأكارب الأصاغر
بقوتهم ، فأكلوا أموالهم . وأدركك الأصاغر ، فجاءوك بهم
وبما صنعوا في أموالهم ، ما كنت صانعا ؟ قال : كنت أرد
عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال عمر : فأني وجدت كثيرا
من قبلي من الولاة ، عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم ، وعزهم
بها أتباعهم ، فلما وليت ، أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد

على الضعيف من القوى ، وعلى المستضعف من الشريف . فقال
سعيد : وفقتك الله يا أمير المؤمنين .

واجتمع ناس من بني مروان عند عمر بن عبد العزيز ،
فحبسهم عن الخروج ، وقال الخباز : إذا دعوت بالطعام ، فلا
تعجل به ، وطال حبسهم حتى تعالى النهار ، وهم لم يعتادوا
الصبر على الأكل ، فشر به الخباز ، فقال له عمر :
« ويحك ، اتتنا بطعام ، قال نعم يا أمير المؤمنين الآن » . ولما
أبطأ الخباز ، قال لهم عمر « فهل لكم في سويق وتمر ؟ وجي
بسويق وتمر ، فأكلوا ، ولما فرغوا جاء الخباز بالطعام ،
فأمسكوا عنه ، فقال عمر : « ألا تاكلون ؟ » قالوا « والله يا أمير
المؤمنين ، ما نقدر عليه » . فقال لهم ذلك غير مرة فأبوا
أن يأكلوا ، فقال : « ويحكم يا بني مروان ، نفيم التمح في النار »
وبكى عمر . . !

وقال ابن عبد العزيز عمر لمولاه مزاحم ، إن هؤلاء القوم
قد أعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان
لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إلىّ ليس على فيه دون الله
محاسب ، فقال له مزاحم « يا أمير المؤمنين ، هل تدري ،

كم ولدك .. هم كذا وكذا ، فذكرت عينا عمر ، وجعل يستمع ؛
ويقول : « أكلهم الى الله ، فانطلق مزاحم من وجهه ذلك
حتى استأذن على عبد الملك ابن عمر ، فأذن له . وقد اضطجع
للقائلة . فقال له عبد الملك « ما جاء بك يا مزاحم هذه
الساعة ، هل حدث حدث ؟ قال : نعم ، أشد الحدث عليك
وعلى ابن أبيك . قال وما ذلك ؟ قال دعاني أمير المؤمنين
وذكر له ما قال عمر ، فقال عبد الملك « فما قلت له ؟ قال
مزاحم ، قلت : « يا أمير المؤمنين ، أتدري كم ولدك ، هم
كذا وكذا » قال عبد الملك « فما قال لك ؟ قال
« جعل يستمع ، ويقول « أكلهم الى الله . فقال عبد الملك
« بدس وزير الدين أنت يا مزاحم ! »

ثم وثب ، فانطلق إلى باب أبيه عمر ، فاستأذن عليه ، فقال
له الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال
استأذن لي . فقال له الآذن : أما ترحمونه . ليس له من الليل
والنهار إلا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذن لي لا أم
لك ، فسمع عمر الكلام ، فقال من هذا ؟ قال . هذا
عبد الملك . قال ائذن له فدخل عليه ، وقد اضطجع عمر
للقائلة . فقال : ما حاجتك يا بني هذه الساعة ؟ قال . حديث

حدثني مزاحم ، قال : فأين وقع رأيك من ذلك ، قال :
وقع رأيي على إنفاذه ، فرفع عمر يديه ، وقال . « الحمد لله
الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني ، نعم ،
يا بني ، أصلى الظاهر ، ثم أصعد المنبر ، فأردها علانية على
رموس الناس » . فقال عبد الملك . يا أمير المؤمنين ، ومن
لك بالظاهر ، ومن لك إن بقيت إلى الظاهر أن تسلم لك نيتك
إلى الظاهر . ، . فأتى عمر المسجد وصعد المنبر ، ورد أمواله إلى
بيت مال المسلمين على رموس الناس ..

